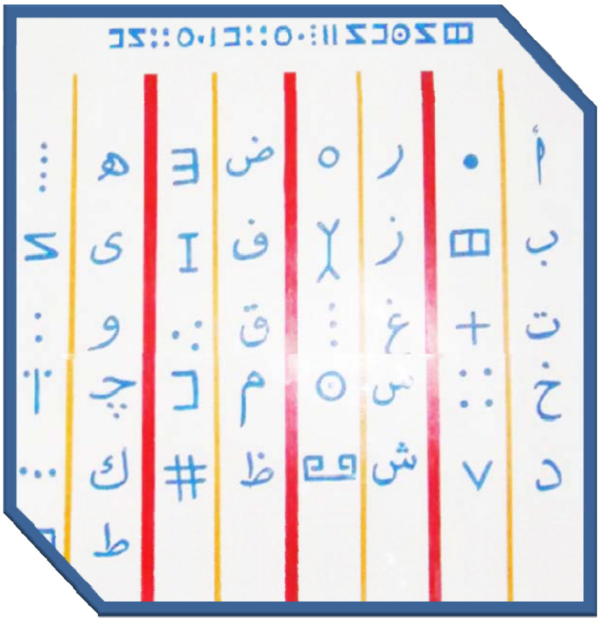

القاعدة المشتركة للغات والكتابات مقاربة في أصول الكتابة الليبية

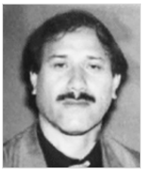

د. العربي عقون

أستاذ التاريخ القديم والآثار

كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية

جامعة قسنطينة (٢) – الجمهورية الجزائرية

الاستشهاد المرجعي بالدراسة:

العربي عقون، القاعدة المشتركة للغات والكتابات: مقاربة في أصول الكتابة الليبية.- دورية كان التاريخية.- العدد الرابع والعشرون؛ يونيو ٢٠١٤. ص ٢٩ – ٣٥.

www.kanhistorique.org

كان التاريخية: رقمية الموطن .. عربية الهوية .. عالمية الأداء

مُلَخَّصْ

كان موضوع اللغة والكتابة محل نقاش طويل وعميق بعد نجاح المنهج التجريبي الذي يريد أن يثبت بالدليل كيف ظهرت اللغات ونشأت، وقبل ذلك كان يُظَنّ أنّ الأديان والمعتقدات قد حسمت الموضوع، وأن بعض اللغات ذات منشأ إلهي مع أنّ الصحيح هو أن للإنسان استعداد فطري منذ طفولته للكلام، وبعد ذلك يكمل طريقه في "صناعة" معجمه اللفظي. كتابة اللغة أي الإشارة إلى الكلام برموز كتابية كان حدثًا كبيرًا لأنه مكّن من نقل المعلومة والفكرة، ومن ثَمَّ تراكُم المعارف من شخص إلى آخر ومن جيل إلى جيل. وقد تتبع الباحثون مسار هذا الحدث الكبير منذ البدايات الأولى التي كانت في شكل صور بكتوغرافية إلى الكتابة المقطعية وأخيرًا الترميز لأصغر أجزاء الكلمة وهو الحرف، وبذلك ظهرت الرموز الكتابية (الأبجديات والخطوط) وكانت لكل أمّة تجربتها بل كانت تلك التجارب تغتني بالاحتكاك والتأثير والتأثّر فجاءت بعض الخطوط الكتابية مقتصرة على الصوامت (Consonnes) وبعضها الآخر اكتمل بدمج المصوتات (Voyelles) في الصوامت. الهضبة الصحراوية(Tassili n’Ajjer) في أقصى جنوب الجزائر هي عبارة عن متحف مفتوح في الهواء الطلق للرسوم الصخرية وهي تمثِّل بحقّ "حضارة صورة رائدة"، لذلك نرى أنّه لا ينبغي البحث عن أصول الأبجدية الليبية (الأمازيغية القديمة) خارج تلك الحضارة، وهو ما حاولنا إثباته غير أنّ عددًا من الباحثين حاولوا ربطها بمؤثرات قادمة من هنا وهناك وهو الموضوع الذي ناقشناه في هذه المقاربة.

مُقَدِّمَةُ

يمثل تطوّر التعبير آخر حادثة كبرى في التطور الإنساني، لقد ارتسم في ذاكرة الإنسان المستخدم لهذا التعبير الذي استعمله لنفسه وفي تجاربه وخلال ترحاله وحروبه وفتوحاته، ولهذا فإنه لا يوجد على الإطلاق تطابق بين حدود اللغة وحدود الشعب التي يوجد عمومًا داخل إطارها شعب ولغة يحملان نفس الاسم، فالحدود الثقافية والدينية تتجاوز ذلك بكثير، والحال أن حدود الفرانكوفونية حاليًا - مثلاً- أو حدود العربية، ليست هي فرنسا أو شبه الجزيرة العربية على التوالي وإذا كانت الفرنسية أو العربية تستخدمان الحروف اللاتينية والعربية على التوالي، فإن لغات أخرى تشاركهما في نفس الحروف، وعلى نحو مبسط يمكن القول بأن التعبير انبثق من طبيعة غريزية "عضوية" منذ حوالي مليون سنة، ومن جذع مشترك، إنه التعبير الذي تكلّم به جميع الناس الذين كان عددهم قليلاً على كرتنا الأرضية، وما الاختلاف إلا في الفروع وهذه الفروع هي اللغات.

لم يُتَمَكَّن لحد الآن من تفسير ظاهرة تطوّر اللغات فكريًا تفسيرًا كاملاً، وإذا كنّا في بعض الأحيان نعتقد بأن تطوّر لغة ما يبدأ بتحوّلات طفيفة تطرأ عليها، فإن بعض التطورات تمثل طفرة تقطع خط التسلسل في التطور، فما هي هذه "الطفرات" التي

علمية. عالمية. مُحكّمة. ربع سنوية

ISSN: 2090 – 0449

تُحدِث تغييرًا كبيرًا في تركيبة اللغة كلها، وما هو هذا التغيير الذي جعلها تتوجّه نحو توازن آخر في بنيتها وتركيبتها.

يتمثل النجاح الحقيقي للغة ما في تحقيق بنية جديدة، تجعلها تغزو محيطها وتهيمن عليه بالتعبير عنه جزئيًا وكليًا، ومع أن اللغات الشفوية لم تترك أيّ أثر مادي، فهي لا "تتحجر" طبعًا، ولا يمكن العثور عليها في مستحدثات، مثل الكتابات التي تعود إلى حوالي ١٣٠٠٠ سنة، أي حوالي (١%) من عمر الإنسانية، ومن العبث البحث فقط من خلالها على ثروة لغوية أو نزوح لغوي نحو جماعات في أقاليم متعددة، إلا أنه يمكن اللجوء إلى تقنية أخرى أثبتت نجاعتها في تخصصات علمية أخرى، ثم تكييفها مع هذا النوع الخاص من البحوث.

أولاً: ميلاد اللغة

تمّ التوصل من خلال بعض المنهجيات الباليونتولوجية التي أمكن استخدامها إلى خلق ما يمكن تسميته بـ: علم اللغات القديمة المقارن وخاصةً بإيجاد الصلة بينها وبين لغات حديثة والدليل هو أنّنا نستمع إلى "كلمات" منغَّمة متحوِّلة من صوامت إلى نواغم، تصدر كالفرقعة، ويمكننا أن نفهم من خلالها المراحل الأولى من الكلام أو التعبير في حياة الإنسانية، إنه تصويت الأصوات (Vocaliser les Voyelles) ثم خلق الصوامت (Consonnes) الأصلية من خلال لفظها بملء النفس، ثم دمج الأصوات بالصوامت مع الزفير وذلك قبل اكتشاف قلب الصوامت والأصوات (Consonnes-Voyelles) وخلال ذلك يختلط كل شيء كما عند الطفل، فأهله قد لا يفهمون لغته بهذا التعبير ولذلك يبذلون جهدا كبيرًا لتحويل تطوّره الطبيعي، فيأخذ الطفل في تقليد أهله، إن الطفل يبتكر الكلمات التي تتميّز بالتكرارية مثل: بابا، ماما، والأهل يجارونه في كلامه فيضعون له مفردات تكرارية مثل: ميمي، نونو، ... .

إن مجموعة إخوة هي أقرب إلى بعضها البعض بقدر تميُّزها بميزات مشتركة، وهذه الميزات المشتركة هي "الجذع المشترك "الذي يمثل البداية والظهور، وتدريجيًا . بتطبيق هذه المنهجية في البحث . يمكن أن نصل إلى الأصول المشتركة لكل اللغات التي لا تزال حيّة، وبالتالي الاستدلال على وجود أصل واحد للكلام، كما يمكن الاستعانة بأسماء المواقع الجغرافية وخاصةً أسماء الأماكن وهذا لإعادة تخطيط ورسم معالم "النزوح" الكبير للغات، إن الظاهرة تكون ساعتها أكثر وضوحًا، وحديثًا فإن المعمرين والمستكشفين الأوربيين عندما نزلوا في سواحل العالم الجديد أطلقوا أسماء مدنهم الأصلية على الأماكن التي انتقلوا إليها فظهرت نيويورك ونيو أورليان ...، وهذه التقنيات المذكورة لا بد من استخدامها بالتوازي مع بعضها للتوصل إلى نتائج، ولا بد أن تكون هذه النتائج على الأقل مقبولة منهجيًا إن لم تمكننا من الوصول إلى الحقيقة المطلقة.

إننا نعرف بأن محاكاة الصوت (Onomatopée) هي محاكاة من طرف الإنسان للصوت الذي يسمعه في محيطه، فالطفل -وهذا دليل قوي- ولوع بإطلاق أسماء تحاكي الأصوات مثلاً: صوت المحرك، صوت الدراجة النارية أو صوت الطائرة. ولكن كيف حاكى الإنسان قديمًا أصوات الطبيعة مثل صوت الرعد وصوت الشلالات وصوت الأمواج، التي من الصعب محاكاتها، لقد كان أسهل الأصوات محاكاة هو صوت الحيوانات، ولعل من المؤكد أن تكون محاكاة أصوات هذه الحيوانات هي الخطوة الأولى نحو تشكيل كلام وتعبير مهّد لظهور اللغة وتطوُّرها، خاصةً وأن قدرات الإنسان الفكرية والذهنية في فجر تاريخه كانت أكثر من قدرات البدائيات (Primates) الأخرى، التي تشاركه في كثير من الملامح والخصائص الفيزيولوجية، ولكي ينقل "أفكاره" تلك كان لا بد من تطوير وإنجاز تعبير كان دون ريب قد بدأه بالوصف والإشارة.

إن المرحلة الأولى لتعبير حقيقي هو "إنتاج قياسي" للأصوات بواسطة البلعوم أو الحلق، وهنا يكمن الفرق الأساسي بين الإنسان وباقي البدائيات، فالإنسان يتوفر على قدرة كبيرة في مجال الأصوات باستثناء الدلفين -ربما- فإنتاج الأصوات بدأ مثلما يبدأ الطفل المولود، وذلك بإصدار أصوات مجردة، وساعتها نقول بأن الطفل يصدر أصواتًا حلقية، ونلاحظ بأن الأصوات "الكبرى" المهيمنة لديه هي ثلاثة: (آ، إي، أو). وأول الحروف المتحرّكة (Consonnes) منطوقية لديه عادة هو حرف اللام، وهو الحرف الذي نجده في تسمية الآلهة القديمة، وقد اختصر أو كيّف مع ظهور الوعي بالله في ذهن الإنسان، ويمكن تتبع هذه الأسماء من الحرف الأساسي: اللام (L) كما يلي: هلل، الله، ألوهيم، علي، يول، إليزي (Elysée) أولمب (Olympe) ...، ولا نزال نكتب إلى الآن بعض أدوات الجواب أو التعجب، نكتبها أصواتا كما هي في حالتها البدائية، مثلا: (آه ، أوه، آي)، ولا ريب فإن هذه الأصوات هي الشكل البدائي للكلام عند إنسان ما قبل التاريخ وبدقة أكثر، إنسان العصور الأولى لما قبل التاريخ.

يبني البعض نظريته على معطيات مورفولوجية صرفة، ويخلص إلى أن الجهاز الصوتي الحلقي لإنسان نياندتال -الذي يكون قد عاش منذ خمسين ألف سنة- قريب من جهاز الشامبانزي، وكذلك المولود الجديد للإنسان الحالي، وبتطبيق القاعدة في نقاطها الأساسية مع مراعاة تطور الإنسان يمكن استنباط أن إنسان نياندرتال كان ينطق بالصوامت (Consonnes): الباء أو الدال أو السين وحتى الزاي وبهذا يكون قد مهّد لظهور شكل كلام للإنسان العاقل (Homo Sapiens) الذي حلّ محل الأول منذ حوالي ٤٥٠٠٠ سنة، والإنسان العاقل هذا يكون دون ريب قد حاكى أصوات الحيوانات، هذا الإنسان الذي كان ذكيًا كالثعلب، قويًا كالثور، عنيدًا كالحمار، على حدّ قول أحد الباحثين.

لتحديد الحيوانات التي يكون الإنسان قد حاكى أصواتها، لا بد من تحليل أصوات حوالي ستّين لغة، لمعرفة الصوت الأساسي

علمية. عالمية. مُحكّمة. ربع سنوية
ISSN: 2090 – 0449

المهيمن والمتعلق بحيوان ما، وبكل ما يتعلق بهذا الحيوان مثلاً: حرف الباء (B) نجده في بقر بالعربية و(Bous) في اليونانية، و(Bos) في اللاتينية، و(Beef) في الانكليزية، وفي:

Beurre, Bat, Bouse, Boucher, Bovin, Bison, Boeuf.

ومن هنا نستنتج بأن: (با، بو، بي، بَ، بِ، بُ، ...) هي التسميات الأولى للبقر عمومًا، والملاحظ هو أنّ الأصوات تسبق دائمًا الصوامت وتكون أصوات الحيوانات هي الأصل في تسميتها مثال: (آخ = خروف)، (آم = معزاة)، (آج = جمل...) ثم تلي بعد ذلك مرحلة قلب الأصوات مثلاً: (آص، تصبح صا)، ثم التكرارية (آص آص تصبح: صاصا إلخ ...) وبعد ذلك تلت مرحلة دمج الصوامت والمصوتات بعضها ببعض، وهنا يبلغ الكلام درجة اللغة.

ثانيًا: أصول الكتابة

ترتبط اللّغة والكتابة بشكل وثيق بتطوّر الشعوب، ومن الصعوبة بمكان تحليل التاريخ دون التصدّي - في نفس الوقت - لتحليل ذلك التطوُّر، وفي الأساس هناك قواعد بسيطة لتعاكس الأصوات المعبرة عن أفكار متسلسلة أو متقطعة، وهو ما يسمح بتتبّع أو اقتفاء أثر "النزوح" اللغوي وبالتالي وضع معالم جغرافية توضّح "مواقع" الاصطدام اللغوي، والحال أن الطابع النقلي (Véhiculaire) للّغات، والجانب غير المادي في تنقلها يفسر بأن خريطة "نزوح" اللغات لا يمكن أن تكون مطابقة انطلاقًا من خريطة الهجرات البشرية.(١)

لفهم كتابة ما، مثلما يقول الأستاذ فيفري (Février) يجب أن تستحضر في ذهنك خصائص لغتها، ويجب التجرد من نظرتنا إلى بنية اللغات الغربية الحديثة حيث تكون الكلمة منوّاة (Noyé) داخل الجملة ومتقيّدة بها ومتغيّرة بإضافة اللواحق والزيادات،(٢) وبالمقابل مثلاً في لغة كلغة الصينيين، فإن الجملة الصينية تتكون من تجميع أصوات حيث أن وظيفتها محددة تقريبًا حسب الموقع الذي يحتله كل صوت أو حرف في الكلمة، ونادرًا ما يضاف إلى ذلك أدوات مساعدة، ولكنها تكون دائمًا منفصلة.(٣) وبالعودة إلى الكتابة، نطرح السؤال التالي: هل الرسم الهندسي هو الذي يحدد تطوّر الكتابات أم الصورة، وهل يمكن التفكير في أن الأشكال الهندسية هي التي أنتجت تنميطًا لصور خيالية سابقة، إنها تساؤلات أسالت الكثير من الحبر ومن الصعب اعتماد نتيجة ما على أنها حقيقية.

ليس من السهل التقرير ما إذا كان النقش في الصخر أو في الخشب هو الذي شكّل المرتكز الأساسي للكتابة ولنا أن نتساءل كيف مرّ الإنسان البدائي الذي أصبحت لديه لغة كلام معقدة إلى حدّ ما من التعبير بالكلام إلى التعبير بالرسم، وكيف رسم الحركة أو نقشها على الصخر بتلك النقوش التي اندثر بعضها ونجا البعض الآخر مخترقًا العصور حتى وصل إلينا.

أثناء اختراع كتابة ما، تلتقي الكتابة باللغة التي تعبر عنها وتتوافق معها (اختفاء التنوين في العربية، وكتابة زوائد لا تنطق في لغات غربية كالفرنسية مثلاً)، ومن العبث البحث في أيّ اللغات كانت الأولى مكتوبة، بل من المرجح أن تكون محاولة كتابة لغة ما قد تمّت في عدّة أماكن وفي عدة لغات والكتابة الأقدم التي نعرفها هي السومرية والمصرية، وهما كتابتان أمكن قراءتهما وإعادة تركيبهما.(٤)

إن الكتابة التركيبية هي تلك التي يرمز فيها لجملة أو في بعض الأحيان لعدة جمل برسم واحد وكل الكتابات البدائية كانت كذلك، وكل الكتابات القديمة كالسومرية-الأكادية، والمصرية والأزتية (Ecriture Aztèque) هي كتابات استعملت في الأساس إشارات رسومية لتمرّ تدريجيًا نحو الكتابة بالاختصار التدريجي لتلك الرسوم والإشارات ثم التحول إلى كتابة مقطعية، وآخر تطوّر للكتابة هو وصولها المرحلة الألفبائية، ومع ظهور العقول الإلكترونية حديثًا ظهرت الكتابة المرمّزة (Ecriture Codée).

ثالثًا: خصائص الكتابة الليبية

كان الكاتب الأفريقي فولجنس (Fulgence) أسقف روسبي (Ruspé) في أفريقيا، قد كتب في القرن السادس الميلادي يقول: أن الألفباء الليبية لها (٢٣) حرفًا أمّا الألفباء العبرانية فلا تَعُد سوى (٢٢) حرفًا، (٥)ولا ينبغي أن ننازع فولجنس في هذا الرقم ٢٣ حرفًا)، فإذا اقتصرنا على الحروف (Caractères) التي أثبتتها النصوص المزدوجة البونية - الليبية (Les Bilingues Punico Libyques) التي مكنت في الأساس من قراءة (Déchiffrement) الكتابة الليبية، نكون قد حصلنا على مجموع (٢٤) حرفًا، على أن هذا الرقم ليس سهلاً ضبطه خاصةً إذا أخذنا في الاعتبار النصوص المكتوبة عموديًا، حيث يبدو التمايز القائم بين الأبجديات السامية القديمة والكتابة الليبية واضحًا، إنه التمايز الذي يطابق الواقع، فمنذ القرن الثاني قبل الميلاد كان يوجد على الأقل في أفريقيا الشمالية كتابة، خاصةً تلك التي مكّنت من تدوين اللّغة الليبية التي نسمّيها اليوم الأمازيغية في هذه المنطقة.(٦)

كانت الكتابة الليبية قد استعملت من قبل السلالات المحلية الحاكمة تمامًا مثلما استعملت من قبل الناس البسطاء، وهذا في النقوش الرسمية (الإهدائية في المعابد مثلا) مثلما استعملت في شواهد القبور، وقد استمر أحد أشكالها المتطورة إلى يومنا هذا عند التوارق، وهو الخط التيفيناغي، فالخط القديم يسمى عادة الخط الليبي وأحيانًا الخط النوميدي.

كان النص المزدوج: (البوني- الليبي) الذي عُثر عليه بدوقّة (Thugga)، في معبد شيّد تخليدًا لماسينيسا في السنة العاشرة من حكم ابنه ميسيبسا ويعود إلى السنة ١٢٩ ق.م.، أول وثيقة مؤرخة بدِقّة، وفي نفس الموقع (دوقّة) عُثر على عدّة نصوص ليبية أخرى مكتوبة كالأولى أفقيًا ويرجّح أنها تعود إلى نفس الفترة.(٧) استمر الخط الليبي خلال عهد الهيمنة الرومانية، وتشهد عدّة نقوش مختصرة ومزدوجة (لاتينية - ليبية أو بونية - ليبية) ونقائش

علمية. عالمية. مُحكّمة. ربع سنوية
ISSN: 2090 – 0449

محفورة على نصب جنائزية، على حيويته طيلة القرون الأولى للميلاد، ومن الصعوبة بمكان تأريخ نصوص أخرى عُثر عليها في الجنوب الوهراني وفي طرابلس (Tripolitaine) وفي الصحراء، وعمومًا فإنه كما أشرنا، استمرت هذه الكتابة لدى توارق الصحراء ولدى المرأة التارقية بالخصوص باعتبارها الحارس الأمين للتقاليد.[٨]

من الملاحظ أن كل هذه الكتابات (Ecritures) لم تكن تُستعمل كما يبدو إلا في نقش نصوص على الصخر أو كصور على أشياء تنقل أو على الأكثر في المراسلات فالآداب باللغة البربرية نادرة، والأعمال القليلة التي نعرفها تستعمل الحروف العربية، لأن النصوص التي كتبت قبل انتشار الحرف العربي قد تكون هدفًا لـ "ثقافة معادية" ولذلك لم يبق منها أي أثر، ويدل شكل الحروف الليبية المنقوشة على استعمال أداة حادّة في نقشها، لأن الحروف (Caractères) ذات شكل هندسي بارز ومزوّى، كما تمّ استعمال أسطر كثيرة و"خطوط" (Traits) ونقوش متجاورة (مفصولة عن بعضها).

إن اتجاه الكتابة الليبية غير قارّ، ففي نقوش دُوقّة (Dougga) وعلى وجه الخصوص في النصين المزدوجين المشار إليهما سابقًا، كُتبت الحروف من اليمين إلى اليسار، ويمكن أن يكون ذلك بتأثير من الكتابة البونية. فالسطور مصفّفة تمامًا مثل هذه الأخيرة، وفي حالات أخرى على العكس من ذلك تمامًا، ففي النص المزدوج (اللاتيني – الليبي) كُتبت الحروف الليبية لتشكل أسطرًا عمودية متوازية وفي كل سطر عمودي ينبغي البدء في القراءة من أسفل إلى أعلى، والأسطر العمودية ذاتها تقرأ أحيانًا بدءًا من اليسار وأحيانًا بدءًا من اليمين، والحال أن مستهلّ هذه الكتابات المنقوشة (Inscriptions) يكون في الأسفل، في حين أن المستهل في نقوش دقة يوجد في الأعلى على اليمين.[٩]

يبدو أن التعبير الخطي الذي يكتب بطريقة الأسطر العمودية بحروف (Caractères) تتسلسل من أسفل إلى أعلى تكون الأكثر قدمًا، أما الكتابات التي تخط بأسطر أفقية فيمكن أن تُعْزَى إلى محاكاة الكتابة البونية (Punique) وقد أفرز الانتقال من الكتابة العمودية إلى الكتابة الأفقية في كثير من الحالات (وليس في جميعها كما قد يُتوقّع) تغيُّرًا في وضع الحرف.[١٠]

إن الكتابات الليبية لا تدوّن إلا الحروف الصامتة (Consonnes) ما عدا إشارة خاصة قابلها ب. شابو (B. Chabot) بالحرف (H)، إلا أنها في حقيقة الأمر تمثل حرفًا صوتيًا (Vocalique)،[١١] غير أن العقبة تكمن في أن قراءة النصوص الليبية القديمة أو النوميدية (Numidique) أو بالأحرى شرحها، لا يزال إلى حدّ الآن بعيدًا عن أن يكون مضمونًا أو مؤكّدًا، لأن البحث في هذا المجال يمكن أن يحقّق نتائج لا تتفق مع الطروحات الكولونيالية بالأمس، ولا مع الطروحات الإيديولوجية المسيطرة على الساحة اليوم، ومع ذلك فإن الاعتماد على النص المزدوج (البوني - الليبي)، واعتبار هذا النص قاعدة تفسير للنقوش الليبية الكثيرة التي أهمل البحث فيها، خاصةً اعتماد اللهجات الأمازيغية الحالية التي تعتبر الامتداد الحيّ للغة الليبية القديمة.

من العلماء الذين أسهموا في تقدّم معارفنا عن الكتابات الليبية يمكن أن نذكر: دو سولسي[١٢] (De Saulcy)، وجوداس[١٣] (Judas)، وج.ب. شابو[١٤] (J.B. Chabot) ، وماينهوف[١٥] (C. Meinhof)، وفيدارب[١٦] (Faidherbe)، والدكتور روبو (D^R Reboud)،[١٧] غير أن أصل الكتابة الليبية يبقى محلّ جدل حادّ. وطبعًا فإن أي تاريخ يكتب بأقلام أجنبية ينفي الأصالة ويحاول أن يجعل من أي عمل إبداعي مجرّد امتداد لهذه الحضارة أو تلك، وعلى العموم فإن الافتراضات العديدة التي قدمت في هذا المجال تنطلق في الغالب من نفي أصالة الكتابة الليبية، وتجهد نفسها في البحث لها عن أصول في كلّ بقاع العالم بنزعة تعبّر عن تجنٍّ منظّم.

يبدو أننا لا نستطيع التفكير بجدّ في أن أصل الكتابة الليبية يعود إلى الكتابة الإيجية بقدر ما يمكننا أن نفعل عكس ذلك لأن هذه الأخيرة عبارة عن كتابة نصف رمزية (Mi-Idéographique) نصف مقطعية (Mi-Syllabique) في حين أن المنظومة الكتابية الليبية تقتصر بالأساس على الحروف الصامتة وقد اقترح البعض مقاربتها بالكتابات الإغريقية العتيقة، غير أنّ هذه الأخيرة تحتوي على حروف صوتية فكيف يمكن إذن تفسير عدم احتفاظ الكتابة الليبية - وهي في زعم هؤلاء مقتبسة عن الإغريقية العتيقة - بالحروف الصوتية.

رابعًا: فرضية الأصل السامي

يستند أنصار الأصل السامي للكتابة الليبية على حجّتين رئيسيتين، الأولى هي الحروف الصامتة التي تؤلف ألفباء هذه الكتابة، والثانية هي التطابق بين بعض الحروف الليبية وبعض الحروف الفينيقية وحتّى بعض حروف الجنوب العربي في الشكل والنطق مثلاً: (ت ، والـ ي) (في الفينيقي، وفي خط الجنوب العربي) والـ (ي Y و : ث . ... إلخ)، ومع ذلك فإنّ السؤال يبقى مطروحًا وهو أيّ الأبجديات السامية يمكن أن تمثل النموذج الأصلي المحتذى الذي تكون الكتابة الليبية قد تأثرت به ؟ وفي هذا المقام يكون أول ما يتبادر إلى الذهن هو الخط البوني إلا أن شكل الحروف البونية لا ينسجم تمامًا مع هذه المقارنة، والحال أن م. ليدزبارسكي (M. Lidzbarski) كان قد ذهب إلى أنها تعود إلى البوني الحديث(Néopunique)[١٨] وحتى في هذه الحال فإن الإشكال يكون في تحديد تاريخ الاقتباس فالكتابة الليبية أقدم بكثير من البوني الحديث الذي لم يظهر وينتشر إلا بعد سقوط قرطاج ؟ ويبقى أن ما يدحض ذلك هو أن البوني الحديث ذا الخطوط (Tracés) الانسيابية والمتموجة من المستبعد أن تتولد عنه أشكال كتابية مزوّاة أو هندسية كالتي نجدها في الكتابة الليبية.[١٩]

علمية. عالمية. مُحكّمة. ربع سنوية
ISSN: 2090 – 0449

افترض البعض أن النوميد أخذوا فقط عن القرطاجيين فكرة الحروف الصوتية لا غير، ثم اقتبسوا أو استعاروا من جهات أخرى شكلاً لحروفهم، أو أنهم اصطنعوا لأنفسهم علامات خطية.[٢٠] وأولى باحثون آخرون أهمية أكبر للمقارنة بالخط الفينيقي القديم، وفي الحقيقة فإن مقارنات كهذه لا نعثر على تطابق كبير فيها، فبعض الحروف من الفينيقي العتيق، استمرّت في البوني بأشكال قريبة جدًا من الأصل الفينيقي، ولا نرى بالخصوص في الخط الفينيقي القديم أي تشابه واضح مع الخط الليبي إلا في حرف التاء، وفي جميع الحالات وحسب هذه الفرضية ينبغي الإقرار بأنّ الأبجدية الليبية تعود على الأقل إلى منتصف الألف الأولى قبل الميلاد، واحتمالاً إلى ما قبل ذلك، وأنها ورثت عن المستعمرات الفنيقية القديمة في أفريقيا مثل: أوتيكا (Utica) ومن الممكن الافتراض بأن الليبيين لم يأخذوا إلا بعض الحروف التي أشرنا إليها سابقًا أما الأخرى فهي أصيلة يدلّ عليه ما يمكن تسميته بالفهرس البربري القديم (وشم قبلي، علامات المُلْكية، العلامات المنقوشة على الصخور، زخارف النسيج كالزرابي والخيام ... إلخ).[٢١]

إن فكرة الأصل السامي تصطدم باعتراض يدحضها يتمثل في الاتجاه العمودي من أسفل إلى أعلى في الكتابة الليبية، في عدة نصوص على الأقل، تدل على أسلوب أصيل متّبع مخالف للخط الفينيقي، مع أنّ بعض الباحثين حاول إيجاد الصلة بين الكتابة الليبية والخط العربي، بل حاولوا الاستدلال على أن الخط العربي هو أصل الكتابة الليبية سواء بربطها بخط الجنوب العربي (مثل محاولات بلو Blau وجوداس Judas) أو بالبحث عن مكان لها إلى جانب كتابات الشمال العربي (الكتابة الصفئية والثمودية Ecriture Safaïte et Thamudite)، ومن الواضح أن بعض الحروف شبيهة على الخصوص بالحروف السامية الجنوبية (Sud-Sémitiques)، غير أن عدم وجود علاقات ثقافية متواصلة بين بلاد العرب - في الألف الأولى قبل الميلاد- وأفريقيا (الشمالية) بسبب الحاجز المتمثل في مصر لا يُخرج القضية من دائرة الفرضية.[٢٢]

هناك عنصرا إثبات يهيمنان على النقاش الدائر حول الكتابة الليبية، الأول هو الحروف الصامتة في الكتابة الليبية، والثاني هو المطابقة في الشكل والمدلول اللفظي (الصوتي) بين بعض الحروف الليبية وبعض حروف الفينيقي القديم والعربي القديم، ومن خلال ذلك يفترض تكوّن عدة كتابات في المناطق المجاورة لمصر شرقًا وغربًا بتأثير من الحضارة المصرية، ثم اكتسب كل منها خصائص تبعًا لتطوّرها، وهذه الفرضية قريبة من الافتراض الذي كان قد وضعه فلاندرز بتري (Flanders Petrie) غير أنها قوبلت بنقد كبير ولم تجد القبول من أيٍّ من الباحثين في هذا المجال. والحال أن ج. فريدريك (J. Friedrich)[٢٣] كان يعتقد بأن الكتابة الليبية أصيلة وهي نابعة من فكرة محلية تطوّرت حتى اكتسبت خصائصها المعروفة، وليست لها أية علاقة مع الأبجديات السامية، ومنه نستنتج أن شكل الحروف النوميدية لا يلتقي مع أيّ من أشكال الكتابات السامية، وعلى خلافها سجلت الكتابة النوميدية الحروف الصوتية الأولى، يضاف إلى ذلك أن الأبجدية النوميدية كتبت أساسًا من أسفل إلى أعلى، ويخلص فريدريك في هذا المقام إلى القول بأنه إذا كانت الكتابة الليبية قد خضعت في وقت لاحق لمؤثرات بونية فإن هذا لا يعني أنها لم تنشأ بطريقة مستقلة.[٢٤]

لعلّ احتواء الكتابة النوميدية (الليبية) على عدد أكبر من الحروف هو دليل على أن ذلك كان بتأثير من اللغة البونية ولعل بعض الحروف أضيفت لرسم بعض الأصوات والحروف المنطوقة التي لا توجد في اللغة البونية لأن الاحتكاك كان كبيرًا بين اللغتين، كما نضيف اليوم عدة حروف أو نضيف إلى بعض الحروف إشارات لمطابقتها مع نطق أو صوت من لغات أخرى، والواقع أن الحرف الليبي الذي يقابل حرف (H) حسب شابو(Chabot) يطابق في الكتابات التي تدوّن الأعلام البونية أيّ حرف حلقي بوني (أي حروف العلة في الواقع) ولعله يكون قد جُعل ليدلّ على حركة الإعراب في آخر الكلمة أو مقابل علامة الرفع في أسماء الأعلام اللاتينية: US، تمامًا كالألف البوني،[٢٥] وعلى العموم فإنه إذا كان اتجاه الكتابة في النصوص الرسمية في عهد مسيبسا أصبح من اليمين إلى اليسار فذلك يمثل تأثيرًا بونيًا بلا ريب، أما قبل ذلك فإن وجود كتابة عمودية من أسفل إلى أعلى يدل على مرحلة من تطوّر الكتابة الليبية لعلها كانت مقطعية ثم تطوّرت إلى ألفباء بالتدريج لتتكيّف في وقت لاحق مع الأبجدية البونية.

يرتكز القائلون بالتأثير الفينيقي في الكتابة الليبية على المؤشّرات التالية:

- **التأريخ**: ظهور الأبجدية الليبية بعد التمركز الفينيقي في الشمال الأفريقي (قرطاج ٨١٤ ق.م. والمستوطنات الأخرى منذ نهاية الألفية الثانية ق.م.).
- **الجغرافيا**: وجود أغلب النصوص الليبية في المنطقة المجاورة لقرطاج (شمال تونس وشمال شرقي الجزائر) حيث كانت اللغة والكتابة البونية راسخة.
- **مبدأ الكتابة**: الكتابة الليبية على غرار الكتابة السامية خالية من الحروف الصوتية (Voyelles).
- **ما قبل الألفباء**: ليس هناك في الشمال الأفريقي نظام كتابي سابق للأبجدية يمكن تفسير ظهور الكتابة الليبية من خلاله.[٢٦]
- **التشابه**: هناك شبه كبير بين عدد من حروف الألفباء الليبية بمثيلتها الفينيقية (من ٦ إلى ٧).
- **التسمية الحديثة**: تيفيناغ، وهو صيغة جمع تأنيث، يعني احتمالاً: الحروف الفينيقية.

علمية. عالمية. مُحكّمة. ربع سنوية
ISSN: 2090 – 0449

كنا قد أشرنا آنفا إلى أنّ التوارق وهم امتداد حيّ للأمة الليبية لا يزالون يستعملون أبجدية يسمونها تيفيناغ مشتقة من الكتابة الليبية القديمة، وحيث أن مفرد كلمة تيفيناغ هو تافنيغ وأن (تا) في الأمازيغية هي علامة التأنيث، فإن هانوتو (Hanoteau) فسّر هذه الكلمة بـ"الحرف" الفينيقي، وذلك ما يجعل الاشتقاق من البوني حسب رأيه شبه مؤكّد.(٢٧)

خامسًا: نظرية شاكر وحاشي

وفي الردّ على هذه الطروحات درس الباحثان شاكر وحاشي أصول الكتابة الليبية وتاريخ ظهورها واستعمالها، وتوصّلا إلى استنتاجات جديرة بالاهتمام، ففي رأيهما أنّ الكتابة الليبية نشأت من أدوات وممارسة محليّة ما قبل الألفباء وأنّ التأثير الفينيقي المحتمل كان بفعل الاحتكاك بين ثقافتين وأبجديتين لكلّ منهما استقلاليتها وأنّ ذلك مبني على المؤشّرات التالية:

- **محدودية الحروف** المتشابهة في الأبجديتين (من ٦ إلى ٧) من (٢٤) حرفًا.
- **اختلاف الملمح** العامّ للأبجديتين اختلافًا تامًّا.
- **ظهور الألفباء** الليبية أقدم بكثير ممّا كان يُعتقد (على الأقلّ من القرن السادس ق.م.) وهي فترة لا يزال فيها النفوذ الفينيقي في أفريقيا محدودًا.
- **وجود النصوص** الليبية الأقدم في منطقة بعيدة عن منطقة التأثير البوني (الأطلس الأعلى وفي عدّة مناطق في الصحراء).
- **التمركز الكبير** للنقوش الليبية في منطقة التأثير البوني يدلّ على الكثافة في النشاط الكتابي وليس على نشأة الكتابة في حدّ ذاتها.
- **الخطّ الليبي خطّ هندسي** (خطوط مستقيمة وزوايا)، وفيه تطابُق كبير مع الرسوم الصخرية المنتشرة في الشمال الأفريقي ومع الديكور الهندسي للفنّ الريفي البربري أيضًا، أمّا الخطّ الفينيقي – البوني فهو خطّ انسيابي يعتمد أساسًا على الانحناء والاستدارة.
- **اسم تيفيناغ** على عكس ما هو ظاهري، ليس بالضرورة دليلاً على الأصل البوني – الفينيقي، ومثال على ذلك أنّ الكثير اليوم يسمّي الألفباء اللاتينية ألفباء فرنسية.
- **جذر الكلمة البربرية**: رو R (W)، التي تعني الكتابة في كلّ لهجات اللغة البربرية دليل على نشأة النشاط الكتابي محلّيًا، وهي نشأة سابقة لوصول الفينيقيين إلى الشمال الأفريقي.

وأخيرًا: ليس هناك أيّ دليل على نشأة الليبي من (الفينيقي – البوني)، فالكتابتان كانتا متواجدتين جنبًا إلى جنب منذ البداية، وهما مختلفتان من حيث الأصل، وليس هناك مؤشّر على تأثير هذه في تلك، وعلى العكس من ذلك هناك مؤشّرات عديدة على أنّ الكتابة الليبية هي محصّلة لنشاط ثقافي اجتماعي داخلي في أوساط المجتمع البربري.

احتفظ التوارق بأبجدية قديمة - بخلاف المجموعات الأمازيغية الأخرى- تعدّ (٢٤) حرفًا ولا يزالون يستعملون هذه الأبجدية إلى الآن، مع بعض الإشارات الإضافية، كما توجد لديهم أبجدية كاملة موجهة لتدوين الكلمات الغريبة (عن الترقية) وخاصةً الكلمات العربية الدخيلة على لغة تاماشق(٢٨) (Tamacheq) التي هي أهم لهجة تارقية، وتدمج الكتابة التيفناغية عادةً بعض الحروف ببعضها للاختصار وهو ما لا نجده في الأبجدية السامية وهو تطوُّر انفردت به هذه الأبجدية.

لا ندري ما مدى صدق بعض الباحثين عندما يحيطون اللغة والكتابة الليبية بالغموض وأكثر من ذلك يشكّكون في أصالتها وفي نشأتها المحليّة، وقد اخترعوا بعض التعلاّت لدعم ما يرمون إليه كقولهم بأنّ المغرب القديم لم تكن لديه تقاليد كتابية سابقة للألفباء (مقطعية أو صُوَرية) تسمح بإثبات الأصل الأهلي التامّ، على اعتبار أنّ تكوُّن الألفباء يتطلّب مرحلة طويلة من التحوّلات للوصول في الأخير إلى الشكل النهائي للأبجدية، وهؤلاء في الواقع يتناسون الرسوم الصخرية التي تزخر بها منطقة تاسيلي ناجّر (Tassili N'Ajjer) على الخصوص والتي تمثّل تلك المرحلة المهيّئة لاختراع الألفباء، وهو تناسٍ نعتبره مقصودًا، لأنّنا لا نعتقد على الإطلاق أنّ الفنّان الذي رسم تلك اللوحات التي تقف مدارس الرسم الحديثة مشدوهة أمامها لم يقده حسّه الفنّي الإبداعي إلى ابتكار الألفباء.(٢٩)

خاتمة

تنطلق النظريات الحديثة من أنّ اللغات نشأت من محاكاة الطبيعة، دون إغفال الاستعداد البيولوجي الذي يتمتّع به الإنسان، ولا ريب أنّ السير في هذا السياق يجعلنا نصل إلى أنّ تعدّد اللغات يقابله في الطبيعة تعدّد البيئات الطبيعية، كما أنّ العزلة الطويلة للجماعات البشرية عن بعضها يجعل اللغات تنمو وتتطوّر بمعزل عن بعضها البعض، ممّا يزيد في التباعد بينها، ولعلّ الشأن بالنسبة للكتابة كان كذلك أيضًا، فقد عرفت الإنسانية مرحلة الصور الصخرية (الجداريات الصخرية في الهواء الطلق أو في داخل الكهوف) وكان لابدّ من مرحلة طويلة للوصول إلى اختراع الأبجدية تبدأ من تصوير الفكرة ثمّ الكلمة ثمّ المقطع وأخيرًا الوصول إلى أصغر أجزائها وهو الحرف أي ابتكار الأبجدية.

في هذا السياق تكون قد ظهرت الكتابة الليبية بأبجديتها المتميّزة، وكل المؤشّرات تجعلنا نستنتج بأنّ التيفيناغ وتمازيغت هما على التوالي الشكل الحديث للأبجدية واللغة الليبية القديمة، التي أشارت إليها المصادر، ودوّنها الأسلاف في معالم ونصب تعتبَر ناحية القالة في أقصى شمال شرقي الجزائر النواة الأولى لها كما هو واضح من كثافة المعالم الليبية بتلك الجهة.

واليوم لا أحد يمكن أن ينفي ما لهذه النقوش الأثرية من أهمّية على الأصعدة التاريخية – الألسنية والأنثروبولوجية كوسيلة وأداة أساسية بين أيدي الباحثين، فهذا المصدر المادّي يقدّم اليوم

الدليل القاطع على مستوى التطوّر الذي بلغته اللغة الليبية (تمازيغت القديمة) منذ أكثر من (٢٥) قرنًا على الأقلّ وهو شاهد على تقدّم آتٍ من داخل المجتمع البربري القديم، وكانت نصوص الكتابة الليبية محلّ عناية المهتمّين (Berbérisants) على الخصوص، فقد حاول هؤلاء القيام بمقاربات في الموضوع، أي دراسة جانب من تاريخ أفريقيا الشمالية القديم من خلال مصدر غير مألوف مع أنّ النتائج تظلّ بكلّ أسف قليلة، إلاّ أنّ طموح هؤلاء لا حدّ له.

كانت الكتابة الليبية مثلها مثل اللغة التي تحمل ذات الاسم واللهجات البربرية المنحدرة منها ضحية نزعات تسييس تاريخ الشمال الأفريقي، ومثلما أُغرق تاريخ الشمال الأفريقي في فرضيات الأصول الأجنبية والغريبة لسكّانه، انساق الكثير وراء فرضيات الأصول الأجنبية للكتابة الليبية، وأرهقوا أنفسهم في البحث عن براهين حاسمة دون طائل، ولذلك ينبغي انتظار دراسات وحفريات جديدة يكون العنصر الأفريقي فيها حاضرًا من أجل دراسة حقيقية موضوعية وجادّة.

الملاحق

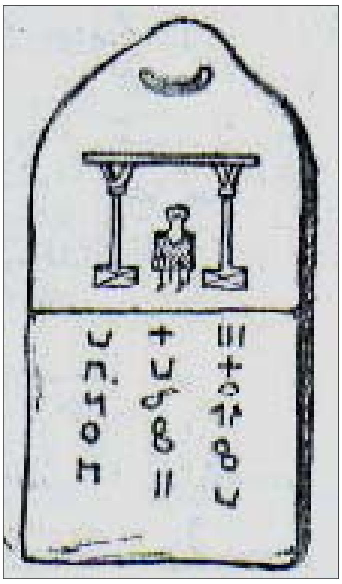

نصب جنائزي من ناحية القالة (الجزائر) كتابة ليبية عمودية

(نصّ ديني: الهلال المقدّس، الكاهن والمعبد)

Source: Dr Reboud, Recueil d'Inscriptions Libyco – Berbères Source, Paris 1870, Planche X.

الهَوامِشُ:

(1) Cohen (M.), *la grande invention de l'écriture et son évolution*, Paris 1959, pp. 5-13.
(2) FEVRIER (J.G.), *Histoire de l'écriture, éditions Payot*, Paris 1948, pp. 318-320.
(3) HIGOUNET (Ch.), "L'écriture", éd. Que sais-je ? PUF, Paris, p. 47-60.
(4) CAMPS (G.), *Berbères aux marges de l'histoire*, Ed. des Hespirides. pp. 275-278.
(5) CAMPS (G.), *Berbères aux marges de l'histoire*, Ed. des Hespirides. pp. 275-278.
(6) Gsell (S.), H.A.A.N., T. VI, p. 94.
(7) BASSET (A.), *La langue berbère*, Londres (1ère éd., 1952)
(8) FEVRIER (J.G.), op.Citt. , pp. 322-324 .
(9) CHABOT (J.B.), *Inscription néo-punique de Teboursouk*, IN J. A., 1918, p. 266.
(10) De Saulcy, *Inscription bilingue du Mausolée de Dougga*, IN J.A., 1831-I.
(11) JUDAS ((A.C.), *l'écriture et la langue berbères dans l'antiquité et de nos jours*, In J.A., 1884-I .
(12) CHABOT (J.B.), *Note sur l'alphabet libyque, IN C.R.A.I.*, 1917, pp. 558-563.
(13) MAINHOF, *Die Libyschen inscripten*, 1931.
(14)FAIDHERBE, *Collection complète des inscriptions numidiques*, 1870.
(15) FEVRIER (J.G.), op. cit. pp. 321-332.
(16) Lidzbarski (M.), Ephé. , II, p. 365 ss.
(17) Gsell (S.), *Note archéologique algérienne*, IN B.A.C., 1899 pp. 440-441.
(18) BASSET (A.), *Ecritures libyques et touarègue*, Articles de dialectologie berbère, Paris, p.167-175.
(19) GALAND (L.), *Un vieux débat: l'origine de l'écriture libyco-berbère*, Lettre de l'Association des Amis de l'Art Rupestre Saharien, 20, pp. 21-24.
(20) Claudot-Hawad (H.), *Ecriture Tifinagh*, In Enc. Berbère, XVII, pp. 2573-2580.
(21) FRIEDRICH (J.), zdmg , IXC, 1937, p. 334.
(22) CAMPS (G.), *Recherches sur les plus anciennes inscriptions lybiques de l'Afrique du Nord et du Sahara*, Bulletin archéologique du C.T.H.S., n.s. 10-11, (1974-195), p. 143-166.
(23) CHABOT (J.B.), *Recueil des inscriptions libyques*, Imprimerie Nationale, Paris.
(24) CHAFIQ (M.), *Initiation au tifinagh*, in Tifinagh 1. Pp. 5-10.
(٢٥) هذه الحجّة التي يسوقها البعض كمسلّمة، تفنّدها الشواهد الأثرية والثقافية والفلكلورية المستمرّة إلى الآن حيّة في الفهرس البربري القديم، وهذه هي النقاط التي يشدّد عليها بيتس في كتابه عن الليبيين الشرقيين، أنظر: في كتابه عن الليبيين الشرقيين،
- Bates (O.), *Eastern Libyans*, pp. 85-86.
(26) Chaker (S.), et Hachi (S.), *à propos de l'origine et de l'âge* de *l'écriture libyco-berbère*, études berbères et chamito-sémitiques, Mélanges offerts à Karl-G. Prasse, Paris 2000, pp. 95-111.
(27) Hanoteau (A.), *Essai de grammaire de la langue Tamachek*, Alger 1896, pp. 13-17.
(٢٨) تاماشق هو النطق التارقي لتمازيغت، وكثيرًا ما يُقلَب الزاي شينًا والقاف غينًا في أمازيغية التوارق.
(٢٩) يمكن الرجوع إلى مراحل تطوُّر فنّ الرسوم الصخرية من الصورة إلى أبجدية تيفيناغ في: عبد الصدوق (صالح)، الفنّ الصخري في شمال أفريقيا، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر ١٩٩٠، ص ١٢ شكل (٣).

علمية. عالمية. مُحكّمة. ربع سنوية
ISSN: 2090 – 0449